المنبوذ

سارة هجروس

في إحدى ليالي الشتاء العاصفة، في إحدى حقول مدينة المنصورة كان يوجد منزل قديم مكوّن من طابقين، تقطنُ فيه امرأة وزوجها وفتاة طائشة تحاول إغراء ابنهما ليتزوجها وما هي إلا مجرد عاملة في تلك الحقول التي يمتلكها الرجل، ورغم أنها تعمل بمقابل مادي ليس بالقليل لكن حب المال والطمع قد سيطرا عليها بالكامل وها هي الآن تنفذ مخططها الذي استغرق شهرين لتنفيذه وذلك الشاب المدلل وحيد والديه لم يكن لِيرفض عرضًا كهذا أبدًا.

بينما كان صوت البرق يضرب في السماء كل من يسمعهُ يَخرُ راكعًا خشيةً من الله كانا هما يعيشان لحظتهما الوردية غير مباليين للعواقب كلاً منهما يريد أخذ ما يريد؛ غير عابئَيْن بتلك الفِعلة الشنيعة التي يهتز لها عرش الرحمن.

عودة إلى الوقت الراهن....

إياد فتى الثمانية عشر ربيعًا ابن ذلك المليونير يجلس في إحدى منازل العشوائيات بِمدينة الإسكندرية يجلس وحيدًا في إحدى الغرف منكبًا على مجموعة من الأوراق مُلتقطًا قلمَه يُدوّن عليها.

«أنا إياد.. أنا ذلك الفتى المنبوذ، ولا أعلم لماذا؟!

الجميع يخافونني ويبعِدون أطفالهم عنّي أتذكّر ذلك اليوم؛ عندما بلغتُ من العمر ثمانِ سنوات، عندها كنت ألعب مع الأولاد من سنّي، ثم رأيت أم أحدهم

تُهرول باتجاهنا «السيدة فتحية»وفجأة دون مقدّمات أمسكتْ يد ابنها ونهرته!!

لم أعلم حينها لماذا، وعقّبتْ بجملة لم أفهمها، لكنّها لا تزال عالقة في أُذنيّ:

- ألم أُحذّركَ ألّا تلعب معه؟ إنه ابن حرام، انتظر لأُخبر أباك وشاهد ما سَيَفعل بِكَ.

«ابن حرام.. ابن حرام» لا يزال صدى الكلمة يتردّد في أُذنيّ إلى الآن؛ كم هو مؤلم ذلك الصدى اللعين.!

«أفقتُ من شرودي فإذا بي أُفاجأ بعدد من السيدات بل لِأصدقكم القول معظم نساء القرية يتقدّمنَ نحوى متجهّمات، تكسو وجوههنّ علامات الغضب، لقد أرعبنَني كوني طفلًا ذا ثمانِ سنوات، فَأخذتُ أعدو تجاه منزلي دون أن ألتفِتْ إلى قدومهنّ خلفي؛ بينما هنّ كنّ يُسرعنْ الخطى ويُشرنَ نحوي.

لقد أنهكني العدو حتى وصلت إلى منزلي بالكاد ألتقط أنفاسي، أغلقتُ الباب خلفي، واتّخذته حصنًا لحمايتي، وبصعوبة بالغة استعدْتُ أنفاسي الهاربة ،فَإذا بأمي تسألني «ما بِكْ؟ لمَ خرجتَ؟ وما شأن تلك الضوضاء خارج المنزل؟» ثم توجهتْ إلى النافذة وعندما أزاحت السِتار صرخت من هَول المشهد وأسرعت إلى الهاتف، بينما أنا تملّكني الفضول فذهبت إلى النافذة لِأرى ما أَفزع أُمي حدَّ الذعَرْ؛ إنهُنّ سيدات القرية مجتمعات يُرافقهنّ رجالٌ لا أعلم متى حضروا يُطوّقون منزلي من الخلف ومن الأمام.

لقدْ قامتْ السيدة فتحية وزوجها بِإشعال الفتنة بين النساء والرجال تبًا لهم جميعًا؛ لذا اجتمع كلُ من النساء والرجال هاتفين «ارحلوا أيها الزانيان

...ارحلوا مع ابنكما الفاسد!!"

ثمّ تدافع الرجال يحملون جذع شجرة عملاقة ويدفعون بكل ما أُوتوا من قوة، وإذا بأمي تُحضر جميع مجوهراتها وما تمتلكْ من أموال، وتجتذبني من يدي بشدّة مُتجهة صوب الباب الخلفي، ولكن هيهات فتلك العقربة صاحتْ بأعلى صوتها «ها هي الزانية تهرب مع ابنها أمسكوا بها»

بينما سِرنا بخطواتٍ واثقة ولَم تلتفتْ أمي إلى صيحات تلك اللعينة حتى اختفينا في حقل الذرة وعندما وصلنا إلى آخر الحقل حيث كان ينتظرنا أبي؛ دلفنا سريعًا إلى السيّارة وابتعدنا تاركين خلفنا منزلنا الذي ترعرعتُ فيه منذُ ولادتي...

بعد أن تركنا منزلنا قطنّا في القاهرة حيث لا يعرفنا أحد، كنتُ قد بلغتُ السادسة عشر من العمر عندما سمعتُ في إحدى الليالي همسًا يأتي من غرفة والديّ فتسلّلتُ واتجهتُ ببُطء تجاه الباب حتى استقرّت أُذناي على باب الغرفة كجهاز تنصُت؛ فإذا بأمي تضع خطة نافذة للاستيلاء على تركة جدي فهي لا يكفيها ما تمتلك! لذا لم تكن نار الفتنة تنفك عن الهدوء في نفس أبي وجدي حتى تقوم هي بإشعالها ثانية، وبعد مضي عدة أشهر على ذلك الحديث؛ وجدتُ أبي وأمي يجلسان مع جدي في منزل العائلة التي لم يتبقّ منها سوى جدي ونحن، فَجدتي قد تُوُفيت بعدما علمت واقعة ابنها مع العاملة «أمي» لاسيّما عندما قرّر جدي تزويجهما تجنبًا للفضائح التي كانت ستُحدثها أمي؛ لم تتحمّل جدّتي وقع الصدمة على آذانها فتوقّفت عضلة القلب عن العمل وصعدتْ الروح إلى بارئها.

بعد عدة دقائق من متابعتي للحديث، استعر الحديث بين أبي وجدي بمُعاونة أُمي، وازداد جدي حنقًا على أمي قاذِفًا إيّاها بوابل من الإهانات «أيتها

العاملة اللعينة ماذا تريدين بعد؟! ألم يكفيكِ ما أخذتِ؟! تريدين سلب ابني أيضًا أيتها اللعينة؟»

وإذا بصفعة مُدوية على وجه أمي أسقطتها أرضًا فأسرع أبى بدفع جدي بعيدًا ليساعد أُمي؛ لكن لسوء الحظ عندما دفعه سقط فاصطدمت رأسه بالطاولة وخرّ صريعًا غارقًا في دمائه، وعلى الرغم من تلكَ الفاجعة إلّا أنها لم تُوخز نبضة في قلب أبي، لقد تمكّن من تدبر الأمر والسيطرة عليهِ

واستطاع بدهائهِ الشديد إقناع الناس أنّ العجوز وافتهُ منيّته وهو ساجد، الصدفة المحضة خلفتْ لِأبي ثروة هائلة، تركة جدي كاملة أصبحت تحتَ قبضتهِ ولازالتْ والدتي لم تحصل على ما تريد!!!.

إنّه السابع عشر من قطار العمر نفس الصراخ يتكرّر، ضجيجٌ يصدر من خارج غرفتي، لذا توجهتُ إلى مصدرهِ لِأفاجأ بأبي يصفع أمي صفعة شديدة فجّرتْ غضبها، وقامَتْ على إثرها بإشهار سبّابتها في وجهه تُهدّده بإبلاغ الشرطة؛ ما أن أدارت ظهرها نحو الباب حتّى التقط أبي مزهرية كانتْ موضوعة على الطاولة وضرب بها رأسها فخرّتْ مُلقاة على الأرض تتدَفّق الدماء من رأسها كالشلاّل، لم أستطع النظر أكثر، فهرولتُ تجاه الباب تاركًا كل شيء خلفي وتوجّهت إلى أقرب محطة واستقلت قطار الإسكندرية؛ وعقب فترة وجيزة من ذلك الحدث قرأتُ في إحدى الجرائد خبر «إلقاء القبض على ابن المليونير جراء قتل زوجته واختفاء ولده البالغ من العمر سبعة عشر أعوام «وقاموا بإرفاق صورة بجانب الخبر، كانت تلك الصورة صورتي، وبعد أسبوع ونصف حان موعِد إعدام أبى رسميًا وتربّعتُ أنا على عرش أصحاب الملايين بصفتي نجل ابن المليونير الوحيد .

«سؤالًا واحدًا ظلّ مبهمًا وإجابتهُ خفيّة عني، ما ذنبي أنا؟ لكي أعيش باسم

مستعارٍ هاربًا من نفسي، لا أُبصر نهارًا، أتلصّص ليلًا متخفيًا كاللصوص أسير على حين غفلة من الناس.....

ما ذنبي أنا إذا كان والدايّ قد أخطآ؟ ما ذنبي أن أعيش منبوذًا ينظر الناس إليّ كأني آفة يجب القضاء عليها؛ أقسم لكم أنّي لم أختر كيفية مجيئي إلى الحياة الدنيا ولَم أخترْ والدايّ، ومن منكم فعل؟ .

ومادمتُ منبوذًا فَلْتتركوني وشأني فقط، لا أريد منكم شيئًا سوى ذلك؛ دعوني أعيش في سلام....

ألم يكفكم أنّي ابن مجرم بجانب كوني غير شرعي؟! أرجوكم كفى لأنني إنسان مثلي ومثلكم واحد جميعنا من آدم وآدم من طين، لذا لا أريد سوى بعض الاحترام.

تمت بحمد الله.